



الجمعة 16 يناير 2015 12:01 م

**بقلم : أ.د. إبراهيم أبو محمد
المفتي العام للقارة الأسترالية**

الأزمة نوعان، عابرة، ومتكررة، وإدارة الأزمات المتكررة تطرح على مستوى الفكر السؤال البدهي للأزمة، لماذا.....؟ وكيف.....؟ وقبل أن تهدأ عاصفة الجرم المسمي بما سيتركه من آثار وتداعيات واستعمال وتوظيف جدير بنا أن نطرح على أنفسنا وعلى من نعيش معهم في مجتمع المهجر ونشاركهم الوطن والمواطنة والوطنية سؤال الأزمة لماذا.....؟ وكيف.....؟

- وسؤال الأزمة يتصل مباشرة بعلاقة الشرق بالغرب ورؤية الغرب للدين عمومًا وللإسلام على وجه مخصص وهو سؤال مركب من تساؤلات طرح بعضها في استحياء وخجل، وبعضها الآخر كان جريئًا وجسورًا في مناقشة تلك العلاقة، وكان في مقدمة ما طرح من تلك التساؤلات : "لماذا يصرون على الإساءة إلينا في أعز ما نملك.....؟"
- ألم يتحدث العالم عن ضرورة التعايش والحوار وقبول الآخر.....؟
- فلماذا يجرحون مشاعرنا ويطعنون في ديننا.....؟
- وهل هي - على المستوى الثقافي - حربٌ صليبية جديدة كما قال قديما جورج بوش يستخدم فيها القلم بدلا من المدفع، والصورة بدلا من الطائرة، والكلمة بدلا من الصاروخ.....؟ ويكون احتلال العقول والمشاعر بديلا عن احتلال المدن والقرى وحرب الشوارع.....؟
- وربما كان من المناسب أن نجيب عن السؤال الأول فقط لماذا.....؟ وأن نرجئ السؤال الثاني "وكيف؟" لمقال آخر
- والإجابة الخطأ عن تلك الأسئلة تخلق بيئة مواتية للكراهية والتعصب، وربما العدوان والعنف، ولذلك كان على العقلاء أن يهتموا بإجابة السؤال وأن يتحرى الجميع في الإجابة عنه المنهجية والعلمية والموضوعية بعيدًا عن كلمات المجاملة التي تشكل في معالجة الأزمة مجرد التذخير، لكنها لا تتناول أصل الداء ولا تتعرض له
- ومن هنا تقتضى المنهجية العلمية في الإجابة عن تلك الأسئلة متنا وشرحا، متنا يلخص ويضغط ويختصر ظواهر العنف وأسبابه، وشرحا يستفيض ليكتشف سر الإساءات ونماذجها في طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب، أو بين ثقافتين وحضارتين التقيا وتشابكا وتعانقا وتشاكسا
- ومن المعروف أن الحضارة المادية الغربية قد استفادت من التراث الثقافي والعلمي للحضارة الإسلامية وبخاصة في الأندلس، وقد حاولت الحضارة المادية الغربية وهي في أوج قوتها أن تهضم وتذيب خصائص ومقومات الحضارة الإسلامية ولكنها لم تستطع رغم أن الأخرى كانت قد فقدت دولتها وأبوتها السياسية وتعيش حالة من التراجع والاستلاب، إلا أنها وبرغم جراحها فقد تأبت واستعصت واحتفظت بخصائصها ورفضت الذوبان. وربما كان شرح العلاقة أكبر من أن تستوعبه مقالة صحفية أو حتى كتاب واحد لأنها محصلة تراكمية ورصيد قرون من الاشتباكات والصراع الطويل .
- ولقد لاحظ الباحثون في أوروبا وأمريكا وكثير من البلدان الأخرى أن لدى الغرب كمراكز للقرار منظومة إعلامية ترتبط في أغلبها بالهوى السياسي وتعتمد تشويه الآخر المسلم وتصوره على أنه الجحيم بعينه ، وتحط من قدره، وتحاول إشاعة الخوف منه وتلصق به أبشع الاتهامات، ولا تكف عن الهجوم عليه، واستعداد الشعوب ضده ، وكما يتضاعف خوف المسلمين على دينهم بعد كل هجوم، يكون كذلك خوف الغرب منه كلما ظهرت قدرة المسلم على التمسك به وإصراره على تطبيقه والالتزام به والتضحية من أجله ، ذلك بالإضافة إلى معرفة دوائر البحث هناك بقدرة الإسلام ذاته كمنهج على أن يفرض نفسه كبديل حضاري وكمنافس اقتصادي يتحدى بخطورة وجسارة إذا توفرت له البيئة الحاضنة
- وفي أستراليا هيئات مسؤولة عن حماية المجتمع من الحرائق كونت خبرتها عن طريق العلم والتجربة ، وهذه الجهات لها دور كبير في حماية أستراليا من الحرائق ، ومن مهامها أنها عندما تعلم باحتمال ارتفاع في درجات الحرارة وهبوب العواصف تصدر تعليماتها للناس بالامتناع عن إشعال النيران لأنها قد تتسبب في حرائق ربما تكلف المجتمع الكثير من الضحايا في الأرواح والممتلكات ، ومن ثم فلا يجوز لعبث متهور أن يسخر من تلك التوجيهات ويعمد إلي إشعال النار وسط العواصف .
- المجتمع هنا له دور كبير في منع هذا العاثب والضرب على يديه حتى لا يؤدي المجتمع كله بانحرافه السلوكي .
- ومن المعروف للباحثين أن العقائد بصورة عامة تشكل في الوجدان لدى أصحابها مناطق شديدة الحساسية وسريعة الاشتعال، لأنها

مغلقة بالعواطف ،والعواطف كما يقولون قواصف وعواصف وأحياناً نواسف .

- ومن ثم فالعقائد بهذا التوصيف تشكل محميات طبيعية لا يجوز الاقتراب منها أو اقتحامها على أصحابها وإلا حدث الحريق:
- وظهور الجرم المسيء بشقيه والذي شكل زلزالاً في فرنسا له دلالة خاصة لا تخطئها عيون الباحث
- فشقه الأول كان عدواناً إرهابياً صارخاً على صحيفة أمعنت في تعنتها وأصرت على التعدي والتجاوز والعدوان على عقيدة 1.6 مليار مسلم في .العالم وفي أكثر من مرة رغم كل الاحتجاجات .
- والشق الثاني كما قال فاعله "كوليبالي" الذي قام باحتجاز الرهائن أنه فعل ذلك انتقاماً لما تقوم به إسرائيل تجاه الفلسطينيين ، ولما قامت به فرنسا في بلده الأصلي "بالي"
- ومن الطبيعي أن يكون من حق فرنسا وطناً وحكومة أن تحمي نفسها من خطر الإرهاب الذي أشعل غضب كل الشعوب بهذا العدوان على شارلي إيبدو

• صحيفة شارلي إيبدو التي حظيت بتأييد العالم بعد الحادث كانت قد تعودت من قبل على تجاهل كل العواصف وكل الغضب ففعلتها في السبعينات حين سخرت من شارل ديغول بعد موته فذهب المجتمع والدولة معترضاً فطردت الصحفي صاحب السخرية من عمله . وعرفت الصحيفة أن لحريتها سقفاً محدداً يجب ألا تتجاوزه وإلا ، وعلناً ذلك أغلقت أبوابها وبيعت بثمان بخص ، ثم عادت للظهور مرة أخرى في ثوب جديد، وكررت التجربة الخاطئة مرة ثانية فتعرضت لنجل ساركوزيه وعرضت بأصوله اليهودية فاتهمت بمعاداة السامية واعتذرت وطردت الصحفي الذي فعل ذلك وأدركت مرة أخرى أن لحريتها سقفاً محدداً يجب ألا تتجاوزه وإلا .

• غير أنها تجاهلت ذلك كله وأوغلت في التعدي والتجاوز والعدوان على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ولم تتعباً بغضب 1.6 مليار مسلم ونشرت رسوماً المسيئة أكثر من مرة بحجة حرية التعبير ، ولجأ بعض الفرنسيين إلي القضاء ليمنع الصحيفة من استفزاز المسلمين وإثارة الكراهية ، ولكن القضاء انتصر للصحيفة بذات الحجة "حرية التعبير" وكأن الحوادث السابقة بشارل ديغول وابن ساركوزيه لم تكن من قبيل حرية التعبير !

- هنا تبدو الانتقائية في التعامل مع المبدأ الواحد بازدواجية المعايير مثيرة للسخرية ، ومستفزة للمشاعر ، ومستهينة بعقل القارئ وذكائه حين تصب الزيت على النار في وقت ترتفع فيه حرارة الغضب وتشتد فيه العواصف بحروب عبثية تأكل الأخضر واليابس وتكلف الدول مئات الآلاف من القتلى والضحايا في كل بقاع الأرض وفي المنطقة العربية بالذات .
- في مواجهة ظاهرة العنف والإرهاب التي وقعت في فرنسا اختلطت فيها دماء الضحايا المسلمين الفرنسيين بدماء غيرهم من الفرنسيين ولم يفرق الإرهاب بين مسلم وغير مسلم ، ومع ذلك تتكرر الأخطاء ويتم التركيز على ديانة الجاني بينما الضحية لا يتحدث أحد عن دينه .
- في جرائم باريس قتل الشرطي أحمد مرابط، وهو مسلم مخلص لدينه ولقيم فرنسا ولم يشفع له دينه ، وقد كان القاتل والمقتول مسلماً أيضاً، فلماذا يتم التركيز على ديانة الجاني بينما يغض الطرف عن دين الضحية وقد مات وهو يدافع عن حرية التعبير في صحيفة تهين دينه ونيبه وثقافته ، أليست هذه ازدواجية أخرى في المعايير تمارس عن إصرار وقصد .
- و هناك ضحية مسلم آخر داخل الصحيفة، وهو الجزائري مصطفى أورا، ثم كان هناك العامل المسلم "لسانا باتيلي" في المتجر اليهودي الذي قام بإخفاء 6 من الزبائن اليهود في ثلاجة لحوم وحماهم من القتل وحفظ حياتهم وتواصل مع الشرطة عبر هاتفه المحمول وكان دوره مهماً في عملية اقتحام المتجر، وبسبب إنسانيته لم يمس هؤلاء اليهود بأي أذى والمفارقة أنه من مالي نفس البلد الذي يتحدر منه الخاطف كوليبالي

- "لسانا" قال عن نفسه إنه مسلم مؤمن ويصلي والهجوم يؤلمه جداً وعلاقته باليهود جيدة جداً، وهو حزين على مقتل زميله اليهودي يوهن كوهن؟.
- والسؤال لماذا يتم التركيز على ديانة الجاني ولا يشار إلي ديانة الضحايا ...أليست هذه ازدواجية في المعايير تشعر المسلم بأنه مستهدف لمجرد ديانته ولأنه مسلم ؟
- ويستمر الإصرار على المعالجة الخاطئة في إطار ثلاث مسارات كلها خطأ وتؤدي إلي مزيد من التعاطف مع الجناة ومزيد من إثارة الكراهية وإشعال الحريق .
- المسار الأول : هو إصرار الصحيفة على إصدار 3 مليون نسخة من الصور المسيئة في تحد صارخ لمشاعر المسلمين في العالم، الأمر الذي يولد نوعاً من التعاطف والتماس العذر للجناة في جناباتهم لدى كثير من شرائح الشباب الذين هم بعيداً عن الاستقطاب ، كما يولد خيبة الأمل لدى كل من يتطلعون إلى السلام والأمن وحماية مكتسبات التعددية الحضارية والثقافية والتعايش السلمي والعلاقات الإنسانية المحترمة بين شتى الأجناس

- المسار الثاني : هو الحشد الإعلامي الخاضع والموجه بالهوى السياسي حيث يحشد للإدانة والتظاهرات ويستحضر من ذاكرته كل ما يثير الكراهية ويزيد من حجم الغضب في نفوس شعوب الغرب لتبرير هجوم اليمين المتعصب ومراكز القرار على المسلمين وعلى الإسلام أرضاً وشعوباً وديناً وهوية ، ويلاحظ هنا ازدواجية المعايير بين مواطن مسلم لا ذنب له تتعرض مساجده لأكثر من 50 حالة اعتداء بينما تستدعي قوات الجيش لحماية المعابد والمدارس اليهودية !!!.
- أما المسار الثالث : فهو الحشد الأمني عن طريق الملاحقات وسن ترسانة جديدة من القوانين تعمل على تقوية الأقوى وهي أجهزة الأمن والاستخبارات ، وإضعاف الأضعف وهو المواطن في مواجهة الدولة .
- المسارات الثلاثة تصب كلها وبرزخ شديد في صالح الإرهاب وتساعد ليتحول من ظاهرة إلى أيديولوجية ، وتحول فعله وممارسته من جريمة إرهابية سيئة السمعة إلى متعة وشهرة وشهوة عند ممارسيه لأنه-في نظرهم - يمكنهم من الثأر والانتقام من عدو يستبج دينهم وأرضهم ، كما ينقل الإرهاب من بيئة محدودة إلى وباء عابر للقارات يضرب في كل مكان ،وتكون النتيجة أن يتحول الإرهاب إلى وطن يحتضن ويصنّع ويصّدر .

- الغريب أنه بعد عشرات السنين من المعاناة نتيجة التجربة يكرر البعض الآن نفس الخطأ فهل نحن نريد القضاء على الإرهاب أم المساعدة في تجميعه ليتكاثر وينمو ؟
- بقي السؤال كيف ...؟ كيف نواجه ونوجه ؟ كيف نعرض ما لدينا ؟ كيف نتمكن من القدرة على نقل الخصم من مربع التعصب والكراهية إلى مربع الحياد والمساندة والدعم؟

• كيف نفتح بصره وبصيرته على ما في هذا الدين من حقائق وعدل وحريّة وكرامة ورحمة للعالمين؟ قيم كثيرة لدينا، يمكن أن يستفيد بها الآخرون، لكنها مجففة ومعلبة وتحتاج واقعاً تعيش فيه وتحيا لدينا أولاً حتى يرونها رأي العين كالعصارة الحية في الشجرة الخضراء، وكل كلام دون ذلك سيظل كلاماً لا واقع له ولا دليل عليه إلا في العقل فقط حيث تعيش الأفكار والتصورات والرؤى، والقيم العظيمة تظل مجرد أفكار في الذهن مالم يكن لها تطبيق عملي في واقع الناس وحياتهم ، وهذا هو التحدي الكبير أمام كل المسلمين

وخاصة من في مجتمع المهجر ، أن يعيش الإسلام فيهم ، وأن يحيا في واقعهم، وألا يكتفوا بمجرد ادعاء الانتماء إليه